الفصل الأول

ظروف المجتمع العربى فى الجاهلية

قال تعالى : « افحكم الجاهلية يبغون »(١) :

يجدر بنا قبل أن نبحث فى اسباب نزول القرآن وقبل أن نتكلم عن دلالته التربوية أن ندرس حال المجتمع العربى وظروفه وعلاقاته بالدول المجاورة ونظام التربية عند العرب فى الجاهلية وقبل نزول القرآن الكريم الذى جاء بفكر وشريعة ومبادىء وقيم غيرت نظام التربية ومنهجها وموضوعاتها عند العرب فى فجر الاسلام . اذ أن التعليم فى كل زمان ومكان يرتبط بظروف المجتمع ويتأثر بالاحوال الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية والدينية السائدة فيه .

فالتربية بطبيعتها عملية مشروطة بالزمان والمكان . ويستحيل على الباحث التربوى أن يحيط علما بأى نظام تربوى وأن يقف على حقيقة امره فى مجتمع من المجتمعات دون ان يتعرف على الابعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية المحيطة به . فدراسة هذه الابعاد ليست من قبيل العمل التمهيدى للبحث وانما هى جزء اساسى له لأن التربية تشتق اهدافها ونظامها ومنهجها من المجتمع وتتأثر بفلسفته وايديولوجيته .

المجتمع العربى قبل الاسلام :

اذا تصورنا حال العرب فى جزيرتهم قبل الاسلام وأحوال الأمم الاخرى المحيطة بهم لأدركنا الحكمة الالهية فى ان يخرج من أرض العرب فى القرن السادس الميلادى نظام تشريعى سماوى ونظام تربوى لتربية الفرد العربى بل والمواطن الصالح فى كل زمان ومكان ، بعد أن تشرفت الجزيرة العربية بمولد وبعث « الرسول عليه الصلاة والسلام » .

---

(١) سورة المائدة : آية (٥٠) .

فقد لعبت الشعوب المحيطة بالجزيرة العربية فى القرن السادس الميلادى أحط أدوارها فى التاريخ ، حتى أبرز الأمم حضارة فى ذلك الوقت قد جرفها تيار الانحلال والفوضى وسوء النظام الادارى وعسف الحكام ، ودبت فيها عوامل الفساد والاضطرابات وبخاصة فى الناحيتين الاجتماعية والدينية . ولو ان الجزيرة العربية بحكم موقعها فى وسط العالم وبحكم طروفها الجغرافية كانت أخف وطأة وأحسن حالا اذ كانت بعيدة عن تيارات الفوضى والاضطراب التى سادت غيرها من الدول . قال تعالى :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ... » (١) .

فالجزيرة العربية منطقة صحراوية تقع فى غرب آسيا الصغرى ، وهى ذو مساحة شاسعة يسكنها قبائل عربية يعيشون على حفافيها فى الشرق والغرب والشمال والجنوب من أرض الجزيرة ، أما فى وسطها فهى منطقة صحراء جرداء لا تصلح للمعيشة فيها وهى منطقة « نجد » وفضلا عن هذا فقد ساعد اتساع الصحراء على صعوبة الاتصال بين القبائل بعضها وبعض فتعددت اللهجات العربية واختلفت الثقافات ، فاليمانى يمتاز بثقافة غير الحجازى ، والنجدى غير الحضرمى ، والعمانى غير الاحسائى ، وثقافة أبناء الساحل غير ثقافة أبناء الداخل ، والجبلى غير السهلى ، ومن مجموع هؤلاء كانت الامة العربية فى أرض شبه الجزيرة .

وبالاضافة الى ذلك فان شمال الجزيرة العربية وجنوبها كانا من ضمن الولايات التى تقاسمتها الدول الكبرى وقتئذ فيما بينها وهما دولتا الفرس والروم ، فقد كانتا هاتان الدولتان تتحكمان فى العالم وتتنازعان السيادة عليه ، مستعينتين فى ذلك بحلفائهما فى الهند والصين والحبشة .

وسنحاول عرض صورة موجزة للوضع السياسى والاقتصادى

---

(١) سورة البقرة : آية (١٤٣) .

والدينى فى كل من هـذه الدول حتى يمكن ادراك الظـروف التى دعت الى ظهور النظرية التربوية المحمدية وعلاقتها بالواقع الذى عـاش فيه وقت تبليغ الرسالة ونشر الدعوة الاسلامية.

علاقة العـرب بالدول المجاورة :

الفـــــــرس :

يعتبر « اردشير بن بابك » مؤسس الامبراطورية الفارسـية وهـو الذى وحد جميع الامارات الفارسية وأخضـعها لحكمـه وبنى مدينـه « المدائن » وجعلها عاصمة لامبراطوريته منذ القرن الثالث الميلادى ؛ ولقب نفسه « شاهنشاه » أى ملك الملوك وقد ضم الى دولته بلاد العـراق العـربى وما حولها .

وكسرى « أنو شروان » احد ابناء الاكاسرة الذين تولوا الامبراطورية بعد « اردشير » وقـد ولد فى عهـده « محمـد » عليـه الصلاة والسـلام ، وقد خلفه ابنه كسرى الثانى آخر الاكاسرة العظام فى الدولة الفارسـية وهو الذى أرسـل له النبى كتابه يدعوه فيـه الى الاسـلام ، فاسـتكبر كسرى وبعث الى عامله على اليمن يأمره بالقبض على الرسـول عليـه الصـلاة والسلام واحضاره اليه حتى يحاكمه على اجترائه على مقـامه الامبراطورى ، ولكن حدث فى تلك الأثناء أن قام ضده ابنه ، « شـيرويه » واشتبك فى صراع مع اخوته وانتصر عليهم وذبحهم جميعا .

وكانت فارس فى حروب سياسية مستمرة مع الروم وخاصـة بعد أن غزا الامبراطور الرومانى « جستنيان » افريقية وجنوب اوربا ، ففزع كسرى فارس لذلك وخشى أن يغزو الرومان بلاده فأعلن الحـرب الدفاعية ضد الروم واستطاع أن يغزو مستعمراتهم فى الشام وسـوريا وأن يخرب انطاكيه عام ٥٦٣م ثم توغل الفرس فى اليمن وطردوا منها الاحباش حلفـاء الرومان عام ٥٧٢ م ، كما كان بينهم وبين الهياطلة فى الشرق ، وبينهم وبين الترك فى الشمال حروب لا يخمد أوارها وكان العـرب فى

الغرب يتربصون بهم الدوائر بل وتجرأوا عليهم ولاسيما قبيلة « بكر بن وائل » التى قامت بمحاربتهم وانتصرت عليهم فى موقعة « ذى قار » ما بين عام ٦٠٤ — ٦١١م .

اما النظام السياسى فى بلاد الفرس فكان يقوم على تقديس الاكاسرة وتأليههم . فلهم كل الحقوق وليس على الافراد قبلهم الا السمع والطاعة باعتبارهم فوق القانون وفوق الانتقاد وفوق البشر اذ يجرى فى عروقهم الدم الالهى المقدس ، وامتد التقديس الى بعض الاسر والبيوتات الكبيرة .

وهكذا كان بين طبقات المجتمع الفارسى هوة واسعة وكانت الحكومة تحظر على العامة ان يشترى احدهم عقارا لأمير او عظيم او يتخذ حرفة غير التى خلقه الله لها .

وكانت فارس حقلا لوساوس دينية فلسفية مختلفة ومتصارعة . اذ كان فيها الزرادشتية التى اعتنقها ذو السلطة الحاكمون ، وكان من فلسفتها تفضيل زواج الرجل بابنته او أخته . حتى ان « يزدجر الثانى » تزوج بابنته و « بهرام جوبين » كان متزوجا بأخته . اما عن العبادة فيقال ان « زرادشت » صاحب الديانة الفارسية دعا الى التوحيد وابطال الاصنام . وقال أن نور الله يسطع فى كل ما يشرق ويلتهب فى الكون ، على أن هذا الفيلسوف لم يصل الى التجريد والى الاتجاه نحو الشمس أو النار وقت الصلاة لأن النور فى رأيه رمز الاله . وهكذا انقلبت عبادة الله الى عبادة النار . ولا يعرف بالتحديد الزمن الذى نشأت فيه المجوسية ولكن الذى لا ريب فيه لدى المؤرخين أن هذه الديانة من مخلفات الأديان القديمة التى عرفها الجنس الآرى وانها الدين الأول للهنود الذين استوطنوا الجنوب الشرقى لنهر السند كما اعتنقها الشعب الفارسى القديم .

وكان بها ايضا المزدكية التى قامت — كما يقول الشهرستانى — على فلسفة أخرى هى حل النساء واباحة الاموال وجعل الناس فيها شركاء كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ وقد حظيت هذه الدعوة باستجابة عظيمة لدى اصحاب الرعونات والاهواء وصادفت لديهم قبولا عظيما .

وقد وصف الطبرى حال البلاد الفارسية وقتئذ قائلا : افترض السفلة ذلك واغتنموه وكاتفوا مزدك واصحابه وشايعوه فابتلى الناس بهم وقوى امرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل فى داره فيغلبونه على منزله ونسائه واولاده ، لا يستطيع الامتناع منهم ؛ وحملو « قباذ » (ابن شيرويه) على تزيين ذلك وتوعدوه بخلعه ، فلم يلبثوا الا قليلا حتى صاروا لا يعرف الرجل ولده ، ولا المولود أباه ، ولايملك الرجل شيئا مما يتسع به ..

وكان لبلاد فارس فى أوج عظمتها حضارة عريقة وعلوما متقدمة فى شتى المجالات . حتى قال رسول الله عليه الصلاة والسلام عنهم :

« لو كان العلم معلقا بالثريا لناله قوم من اهل فارس » .

وذكر ابن النديم فى صفحات كتابه « الفهرست » أسماء العديد من الكتب الفارسية التى نقل عنها العرب قبل الاسلام ، وقد تم اللقاء بين العرب فى الجاهلية والثقافة الفارسية عن طريق الامارة العربية التى تكونت فى شمال الجزيرة العربية على تخوم فارس وهى امارة الحيرة ، وقد كان عرب الشمال هم حلقة الوصل بين الفرس وعرب الحجاز ، عن طريق التجارة ، وكان من عرب الحيرة فى الشمال من يعرف اللغة الفارسية ويجيدها فقد ذكر ابن خلدون « ان عدى ابن زيد » الحيرى كان من تراجمه « أبرويز » ملك الفرس وأن أباه « زيد » كان شاعرا خطيبا وقارئا كتب العرب والفرس ، وعن طريق عرب الحيرة انتقلت ثقافة الفرس وآدابهم الى عرب الجزيرة ، وعدى بن زيد الحيرى أصبح فيما بعد احد كتاب الوحى للرسول عليه الصلاة والسلام ، كما تعلم ايضا فى فارس بعض اهل الطائف بارض الحجاز ومن بينهم « الحارث بن كلده » الثقفى الذى تعلم الطب بفارس فى الجاهلية كما تعلم الموسيقى وضرب العود ، ثم عاد الى مكة وعلم اهلها وكان الرسول فيما بعد يأمر من يأتيه علة أن يذهب الى « الحارث بن كلده » ليتطبب على يديه .

وقد وجد العرب فى حضارة فارس ثراء علمى ضخم اذ كانت لهم كتب فى التنجيم والفلك والهندسة والطب والجغرافيا . وبالرغم من توالى النكبات على الفرس قبل الاسلام — واكبر نكبة اصابتهم عندما فتح الاسكندر

الأكبر بلادهم فقد تلف فى هذه الحرب كثير من خزائن كتبهم — الا انهم كانوا بعد كل نكبة يحاولون استرداد مجدهم وحضارتهم بتأليف كتب جديدة تساير عظمتهم وتقدمهم فيعيدوا آدابهم وعلومهم وخاصة فى عهد ملكهم اردشير بن بابك (٢٢٦ — ٢٤١م) الذى شجع العلم والترجمة والتاليف وبعث فى طلب الكتب من الهند وروما والصين وعمل على ترجمتها، وكذلك كان الشان فى عهد ابنه « سابور » وعهد كسرى « أنو شروان » .

غير أن الانهيار الاجتماعى والخلقى الذى منيت به دولة فارس فى أواخر عهدها كان سببا فى زوال عرشها وسلطانها على ايد العرب المسلمين فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى .

٢ — الـــروم :

استولت الروم على بلاد اليونان ومستعمراتها فى مصر وسوريا وشمال أفريقيا حتى انه امتد ملكهم من شمال الفرات شرقا حتى المحيط الاطلسى غربا .

وقد اقتبس الروم كثيرا من علوم الاغريق (اليونان) اذ كانت لهم حضارة عريقة ومدنية مادية راقية تمثلت فى اهتمامهم الكبير بآلهتهم المجسمة ، وتربية ابنائهم تربية جسمية وروحية بالرياضة البدنية والموسيقى ثم انتقلت الثقافة اليونانية الى الروم فتعلم اهلها علوم الفلسفة والادب والخطابة دون أن يتاثروا بالناحية الدينية . وكان مركز العلم والثقافة للعالم الغربى موجودا فى الاسكندرية غير انه بعد انهيار الامبراطورية اليونانية تحول مركز العلوم الى روما . وهذا ما ذكره « المسعودى » فى كتابه « فنون وما جرى فى الدهور السوالف » ان مجلس التعليم انتقل من أثينا الى الاسكندرية فى عهد الدولة اليونانية ثم جاء الامبراطور الرومانى « أغسطس » فجعل مجلس التعليم فى مكانين الاسكندرية وروما . ونقل ثيوروسيوس — الملك الذى ظهر فى أيامه أصحاب الكهف — التعليم إلى روما ثم رده أباه الى الاسكندرية .

وبينما كانت روما تزخر فيها بحور العلوم والاداب كان الفساد يدب فى جسدها فى الخفاء مدة قرنين من الزمان غير ان الامور قد تكشف

على حقيقتها فى نهاية القرن الثانى الميلادى بعد ان اضطربت الدولـــة ، ولم يعد الاباطرة قادرين على حماية الدستور او احترام القانون .

ثم بدات الدولة فى الانتعاش بعد أن حكمها اباطـــرة مصـــلحين امثال « دقلديانوس » و « قسطنطين » واعتنق الامبراطور قسطنطين المســـيحية (٣١٢ — ٣٣٧م) واصبح حـــامى النصرانية ورافع لوائها الا أنه كان أول ناسخ لتعاليمها وقد بلغت الدولة الرومانية أوج عظمتها فى عهد « جستنيان » (٥٢٧ — ٥٦٥م) لبسالته وحسن ادارته حيث حارب الفرس حوالى أربع وثلاثين عاما وأمن حدود دولته من الشرق غـير أن الامبراطورية من بعـــده اخذت فى التدهور والانحلال .

فلما تولى الامر « هرقـــل » امبراطور الروم (٦١٠ — ٦٤١م) لـــم يجد فيها من قوة تعينه على اعادة مجدها وخاصة ان الرومان وقتئـــذ لم يكونوا أقل انحلالا من الفرس ، فقد كان يسود بلاد الروم حياة التبـــذل والانحطاط الخلقى والظلم الاقتصـــادى من جراء كثرة الاتاوات ومضـــاعفة الضرائب .

ولمـــا يئس « هرقل » وعزم على الفرار من العاصمة القسطنطينيـــة التف حوله أهلها واعلنوا استعدادهم مســـاعدته فى الدفـــاع عن الامبراطورية ضـــد اعـــداءها الفرس فى الشرق والآفار فى الغـــرب ، فعاد الى نفسه بعض الامل وخاصة بعد ان شـــهد العرب يهزمون الفرس فى موقعه « ذى قار » فى نفس العام الذى تولى فيه الملك ، فعزم على العدول عن رأيه وتوجيه ضربته الى الفرس لاسترداد أملاك الدولة فانتصر بالفعل عليهم واســـترد الصليب الحقيقى الذى أخذه الفرس من الروم ابان انتصارهم الســـابق وعادت عظمة الامبراطورية عام ٦٢٤ م اى بعد هجرة الرسول الى المدينـــة المنورة بعامين .

وقد أصدر هرقل أمره بطرد اليهود من الارض المقدسة بالشام بعـــد أن ساعدوا الفرس فى قتل المسيحيين والتنكيل بهم سواء فى الشام أو فى مصر واشتركوا فى تخريب واهانة المقدسات المسيحية ، وكان « هرقل » من المع الاباطرة البيزنطيين فى محاولة التوفيق بين المذاهب المسيحية المتصـــارعة .

ففى عام ٦٢٨ م شرع فى جمع مذاهب الدولة (المونوفيزية والنسطورية) وتوحيدها وأصبح المذهب المنوفيزى هو المذهب الرسمى للدولة الرومانية وهو مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح . وأصدر مرسوم رسمى بذلك يطبق على الدول التابعة للكنيسة الرومانية . غير أن مصر لم تقتنع بالمذهب المونوفيزى فاستبك « هرقل » معهم فى صراع حوالى عشرة أعوام ، لقى خلالها أهل مصر من البلاء ما تقشعر منه الابدان .

وفى عام ٦٢٩ أرسل « محمد » عليه الصلاة والسلام كتابه الى « هرقل » امبراطور الروم يدعوه الى الاسلام ؛ فقبل هرقل كتاب الرسول ورد عليه بانه رسول الله الذى بشر به « عيسى » عليه السلام فى الانجيل وهو مكتوب عندهم ويعتذر بأن الروم رفضوا الايمان به ولم يطيعوا رايه فى دعوته الى ذلك .

وقد تأثر العرب فى الجاهلية بعظمة الامبراطورية الرومانية وثقافتهم اليونانية الرومانية وسيطرتهم السياسية . اذ تمكن الرومان من تكوين دولة عربية فى شمال الجزيرة العربية كان أهلها من البدو الذين كانوا يغيرون على القوافل التجارية ويهددون أمن الدولة الرومانية ويقومون بعمليات السلب والنهب ، فعمل الرومان على تأمين تجارتهم المارة بأرض الجزيرة عن طريق جمع هؤلاء البدو وتوطينهم جنوب الشام مكونين دولة عرفت باسم دولة الغساسنة وقد اظلتها الروم بالحماية والرعاية ، وقد بلغ عرب الغساسنة درجة من الحضارة حيث تعلموا من مخالطتهم الروم كثيرا من محدثات الثقافة اليونانية الرومانية .

ولما كانت مكة مركزا للتجارة بين عرب الشمال وعرب الجنوب وكان أهلها يقومون برحلتين تجاريتين فى السنة أشار لهما القرآن الكريم رحلة الشتاء الى اليمن ورحلة الصيف الى الشام ، كان من الطبيعى الا تقتصر التجارة بين العرب على تبادل السلع والنقود الرومانية بل تعدتها الى الجوانب الثقافية فكان التجار العرب يقتبسون قدر استعدادهم ثقافة الرومان ولغتهم من عرب الغساسنة فى الشمال اذ كان الغساسنة هم واسطة التعارف بين الروم وعرب الجزيرة ، كما تعلم التجار أيضا ثقافة الفرس ولغة الاحباش من تجار اليمن فى الجنوب .

وقد دخلت المسيحية شمال الجزيرة العربية على يد أعظم ملوك غسان وهو « الحارس بن جبله » (عام ٥٢٩ — ٥٦٩) وظل حاكم غسان حارسا للكنيسة المونوفيزية فى الشام ونجح بذلك فى تحويل عرب الشام الى نصارى، بينما هاجر المسيحيون المضطهدون اصحاب المذهب النسطورى الى مملكة الحيرة فى العراق فانتقلت النصرانية اليها من الشام والى هؤلاء يرجع الفضل ايضا فى نشر المسيحية فى ارجاء الجزيرة العربية ، كما كان لاهل الحيرة من قبل الفضل فى نشر بعض مظاهر الحضارة والثقافة الفارسية الى بلاد العرب .

وقد اطلع عرب الجاهلية على كتب اليهود والمسيحيين التى ترجمها عرب الغساسنة وعرب الحيرة ونقل النسطوريين ترجمة لكتب الانجيل والتوراه بعد أن قاموا بتدوينها ونسخها وتوزيعها على بعض العرب فى الجزيرة كما علموا ابنائهم القراءة والكتابة لنسخ هذه الكتب . وبرز كثير من عرب الشمال وظهروا فى علم اللاهوت وتولوا مناصب عالية فى سلك الكهنوت فى جنوب الشام والعراق ومن بينهم يعقوب البرادعى مؤسس الكنيسة السورية اليعقوبية والذى اصبح أسقفا لهذه الكنيسة فى عهد الامبراطور « تيودور » بمساعدة صديقه حاكم غسان « الحارس بن جبله » عام ٥٤٣ م .

ومال كثير من عرب الجزيرة الى الرهبنة وبناء الاديرة منهم « حنظله الطائى » و « قس بن ساعدة » كما تعلمت خديجة زوجة الرسول عليه الصلاة والسلام . وقد انتشر الرهبان والقسس فى ارض الجزيرة كما انتشر الاحبار اليهود من قبل ، وكانوا يردون أسواق العرب يعظون ويبشرون ويعلمون الاطفال القراءة والكتابة . وقد ورد فى بعض آيات القرآن الكريم ما يؤكد انتشار هذه الديانات بين عرب الجاهلية وبالاخص فى بعض القبائل.

والذى يهمنا من امر الرومان فى مجال بحثنا هذا هو ذكر احوالهم السياسية والدينية والاجتماعية فى القرنين الخامس والسادس الميلادى ما جعل الروم بل والعالم كله فى اشد الحاجة الى مبعوث العناية الالهية لانقاذهم من الضلالة ولذا من الله على البشرية بخاتم النبيين « محمد » صلى

الله عليه وسلم الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويضع عنهم أصرهم والاغلال التى كانت عليهم ، بعد ان استشرى الفساد وانتشر بينهم وتضاعفت الاتاوات والضرائب وعمت الفوضى والفتن التى نجمت عن الخلافات المذهبية وتحريف التعاليم الدينية وساد الظلم بين حكامها وأوقعوا بالدول الخاضعة تحت سلطانهم اشد العذاب وشر البلاء مما أصاب الدولة البيزنطية من الانحطاط والانحدار فى التجارة واهمال الزراعة وتناقص العمران ، وأسرع الخراب الى المدن الرومانية العظيمة فلم تتمكن من استرداد مجدها وحضارتها بعد أن كانت فى وقت من الاوقات من أعظم امم العالم يستظل بعلمها وحضارتها كل من خضع تحت سلطانهم ثم انتهت الى الذبول والافول والهلاك بعد أن ضعف النفوذ الامبراطورى وآلت الاستقبليات المتنافسة الى المتبربرين، وظفر اسقف روما أو بابا روما كما سمى فيما بعد بالسلطة العليا ، وأصبح كبار البابوات زعماء روحيين ودنيويين لشعوبهم . ومنذ القرن السادس الميلادى واوائل القرن السابع آلت الامبراطورية السياسية والمدنية الحضارية والثقافية الى العالم الاسلامى بعد أن سار على نظرية تربوية وتشريعات سياسية ودستورية مستمدة من القرآن الكريم والسنة التى تركها الرسول للعالم من بعده .

٣ — الحبشة :

كان نظام الحكم فى الحبشة فى العصر الجاهلى نظاما ملكيا وراثيا غير أن ذلك لم يؤثر على شيوع نظام الطبقية الاجتماعية الذى غشى دولتى الفرس والروم والذى اصطبغ به المجتمع الهندى كما سنذكر فيما بعد .

وكانت الأمور فى الحبشة تجرى وفق الجو السائد فى العالم المسيحى ووفق العلاقات والمعاهدات التى بينها وبين الرومان ومصر حيث كانت الحبشة تابعة لكرسى الاسكندرية بعد أن تدينت بالديانة المسيحية .

ويؤكد المؤرخون ان الحبشة قد نأت تماما عن الصراع المسلح الذى نشب بين دولتى الفرس والروم برغم اتفاقها فى الدين مع الدولة الرومانية

وكانت حليفه لها ايضا وتمكن الاحباش من نشر الديانة المسيحية بين عرب اليمن على ايدى المبشرين المسيحيين وانشاوا كنائس لهم فى «ظفار» و« عدن » فى عهد الدولة الحميرية حتى تنصر عدد كبير من عرب اليمن .

وفى النصف الأول من القرن السادس الميلادى هاجم الاحباش اليمن بأمر مكتوب من قيصر الروم الى نجاشى الحبشة للانتقام من « ذى نواس » ملك حمير الذى حارب نصيرهم فى اليمن « دوس ذو ثعلبان » وانتصر الاحباش وحكموا اليمن مدة اثنتين وسبعين عاما توارث الحكم فيها بعد « أرياط » الحبشى — الامير الذى فتحها — « ابرهة » الاشرم ، ثم « يكسوم » بن ابرهة ثم مسروق بن ابرهة .

وقد عامل ابرهة اهل اليمن معاملة العبيد وذاقوا فى حكمه الأمرين وخاصة عندما فكر فى بناء « القليس » وهى الكنيسة التى أراد بها أبرهة أن يصرف حج العرب عن بيت الله الحرام فى مكة ، وقد استذل ابرهة اهل اليمن فى بنيان هذه الكنيسة وجشمهم فيها الوان العذاب والسخرة ومن قسوته وشدته على العمال كان اذا طلعت الشمس قبل أن يبدأ العامل فى عمله قطعت يده .

وفى العام الذى حاول فيه « ابرهة » الحبشى هدم الكعبة والاعتداء على قبيلة قريش حراس بيت الله الحرام ، وهو عام الفيل — ولد الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، وكانت هذه الحادثة قد اثارت الرعب والفزع فى اهل مكة فى الجاهلية بل وكل اهل الحجاز خوفا من « ابرهة » وجيشه ومن معه من الفيلة ، غير ان الله حفظ الكعبة وهزم ابرهة ونزلت الاية الكريمة « الم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » .

ومع ان « ابرهة » الحبشى قد أساء بحكمه وظلمه وقسوته الى سمعة الملوك الاحباش ، الا أن نجاشى الحبشة فى أوائل القرن السابع الميلادى قد عرف بحسن المعاملة ودماثة الخلق حتى أنه بعد البعثة المحمدية وما لاقاه المسلمون فى مكة من الوان الاضطهاد والعذاب الذى لحق بهم من كفار قريش ، أن أشار الرسول على بعض أصحابه أن يهاجروا

الى الحبشة وكان من تبريره صلى الله عليه وسلم للهجـــرة ما روى من قوله « أن نبيها ملكا لا يظلم الناس عنده ... » فهاجر اليهـــا ثلاثة وثمانين رجلا بأولادهم وزوجاتهم . وقد لقى المهاجرون كل رعاية وتقدير من النجاشى فاحسن جوارهم . حتى يقال انه رفض تسليمهم الى قومهم القرشـــيين حين بعثوا وفدا منهم على رأسه عمرو بن العاص قبل اسلامه وعبد الله ابن ربيعه يطلبون من النجاشى تسليمهم المهاجرين .

وفى عام ٦٢٨ بعث الرسول عليه الصلاة والسلام مع رســـــله كتابا الى نجاشى الحبشة يدعوه فيه الى الاسلام فكتب نجاشى الحبشـــة رسالة يخبره فيها بقبوله دعوته وتصديقه اياه .

٤ ــ الهنـــــــــد :

كانت الهند الى جانب الحبشة من الدول التى تستخدمها الـــدول الكبرى كالروم والفرس يـــد طولى لهـــا لبسط سلطانها على الأمم والـــدول البعيدة عن أرض الروم أو فارس ولقرب الهند او الحبشـــة من الـــدول المراد السيطرة عليها . ويستدل على ذلك من قول « سيف بن ذى يزن » الى كسرى فارس عندما شكا له سوء معاملة الاحباش عملاء الفرس على اليمن ــ قبل سيطرة الروم عليهم ــ حين قال :

« أيها الملك غلبتنـــــا على بلادنا الاغربة ، فقال له كسرى : أى الاغربة ؟ الحبشة أم السند ، فقال : بل الحبشة فجئتك لتنصرنى .. » .

ومثال آخر : أنه عندما أرسل النبى صلى الله عليه وســـلم كتـــابه الى كسرى فارس يدعوه الى الاسلام وأن يذعن للدين الاســـلامى خـــوفا على عرشه من المســـلمين ، كتب كسرى الى « باذان » الحبشى عامله على اليمن ليبحث هذا الامر ويفعل ما يأمره به قائلا : « انه بلغنى أن رجـــــلا من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبى ، فسر اليـــه فاســـتنبه ، فان تاب والا فابعث الى برأسه » .

ويتضح من ذلك أن كل من الهند والحبشة كانتـــا عميلتين للدولـــة الفارســـية بل وحكام او ولاة لهـــا على الدول القـــريبة منها والتـــابعـــة

للامبراطورية الفارسية التى كانت ممتدة من الخليج الفارسى شرقا حتى المحيط الاطلسى غربا ومن الحيرة فى الشمال حتى اليمن والحبشـــــة فى الجنـــوب .

وكان للهند من قبل حضارة قديمة قامت على سيادة النظام الطبقى وحكم البراهمـــة فقـــد قسم المعبود الأكبر للهنـــود « براهمـــة » المجتمـــع الى اربعة طبقات :

— البراهم أو الكهنة الذين خرجوا من راسه اى هم الطبقـــــة العليا فى المجتمع .

— النساطرة او المحاربين الذين خرجوا من ذراعيه .

— الفاسية أو الفلاحين والتجار الذين خرجوا من بطنه وفخذيه .

— السوادره أو المحترفين والاسرى والمغلوبين اى طبقة العبيـــد الذين خرجوا من رجليه .

وتتكون الطبقة الاولى من الحكام والأسر الراقية . ومن حقـــهم دون ســـواهم التعليم وقـــراءة الكتب الموحاة وتفســـيرها ، وكان البراهمـــة مع كونهم يعملون أيضا بالطب والقضاء والشعر ؛ وقد سادوا المجتمـــع بالتهويل الدينى . وحاول الابطال والراجات وهم الملـــوك الذين كانوا ينتخبون من بين المحاربين أن يتخلصوا من ربقة البراهمة غير انهم فشلوا ، وكان محظورا على الطبقات الاخرى من محـاهرة الطبقة الراقية .

أما الطبقات الاخرى من الزراع والتجار والحرفيين يعدون أنجاسا ويمنعون من سكنى المدن ويحرمون من التعليم ؛ ومن الاستحمام فى نهـــر الكنج المقـــدس ، ومن قـــراءة « الفيـــدا » ومن مســـهم أو صاهرهم فهـــو نجـــس .

ويعتبر « مانو » أول من وضع شرائع الهنـــود ودســـتورهم ، وجاء ذكره فى « الفيدا » بأنه الاب العام للبشر والشارع الاعظم لهـــم ، وشرائعه منظومة فى ٥٣٧٠ بيتـــا من الشعر ، جمعت فى كتاب مقســـم الى

اثنى عشر بابا . وتحتوى شرائع « مانو » على : بدء الخلق والنظام الكهنوتى ، والمبادىء التى يجب ان يسير عليها الفرد والاسرة والمدينة ، وواجبات الامراء واهل كل طبقة من الطبقات الاجتماعية ، والنظام المدنى والعسكرى وقوانين العقوبات والقوانين المدنية .

وشرائع « مانو » تشبه الى حد كبير توراة اليهود وشرائعهم ، ويتلخص كتاب الهنود فى أمرين رئيسيين : أحدهما يفرض على الأمة أن تخضع طبقاتها بعضها لبعض ، والأمر الثانى يحتم على الفرد أن يتطهر معنويا وحسيا .

وفى القرن السادس قبل الميلاد ظهر رجل يدعى « ساكيمونى » لقب بالحكيم او « بوذا » ثار على النظام الطبقى والتفاوت بين الطبقات فى الحقوق والواجبات ودعا الناس الى شريعة المساواة فى كل أمر مثلما هم متساوون فى أصل الخلق . وكانت دعوته فى اساسها هدما للبراهمية الطبقية وشرائع « مانو » الهندية ، فثار عليه الكهان البراهمة بينما أيده الطبقة الدنيا من الحرفيين والاسرى ووقفوا بجانبه مما مكنه من نشر مبادئه البوذية اكثر من اربعين عاما .

غير أن البراهمة قد تمكنوا من التنكيل به واضطهاده هو واتباعه فى الهند فهرب معظمهم الى الصين والهند الصينية بلاد المغول حيث وجدت البوذية ارضا صالحة لنشرها وسيادة مبادئها ، وتعتبر هذه البلاد حتى اليوم المركز الرئيسى للديانة البوذية .

وهكذا تفرق انصار بوذا فى الصين والهند الصينية نتيجة لاضطهاد البراهمة لهم وتشتيت شملهم ، فصنعوا التماثيل تخليدا لزعيمهم ونبيهم « بوذا » وحملوا معهم تلك الاصنام ،وبنوا الهياكل ونصبوا فيها التماثيل — تماثيل بوذا — حتى تحولت الديانة البوذية الى وثنية ، وبذلك اصبحت البراهمة والبوذية بالانحطاط واصبح من العسير التميز بينهما .

وبالرغم من غزو الديانة البوذية للصين ، الا أن تعاليم « كونفوشيوس » القديمة التى سيطرت على الأمة الصينية منذ اقدم

العصور لم تتمكن البوذية من منافستها ولم يبلغ بها الأمر ان تصـــبح فى قوة الكونفوشيوسية ، فللصين حضارة قديمة وعلوم متقدمة قامت عـــلى تعاليم « كونفوشيوس » وخاصة فى عهد الأمبراطور « تسين شى هونج تى » الذى بنى سور الصين العظيم لصد هجمات المغول عام ٢٤٧ ق. م. بطول ٢٥٠٠ كم ، وحتى بعد أن تمكن المغول من احتلال الصين وتقسيمها ، لـــم يتمكنوا من القضاء على علومها وتعاليمها الكونفوشيوسية . وبنور العـــلم وقوة الدين تمكن الصينيون من توحيد بلادهم وحكمها على يد الامبراطور « يانج » عام ٦١٨ م ومما يشـــيد بحضارة الصين وعلومها ان الرسول عليه الصلاة والسلام قال : « اطلبوا العلم ولو فى الصين » .

وقد دخل الاسلام فيما بعد بلاد الصين بواسطة التجار العرب المسلمين وخاصة فى عهد دولة « يانج » وهناك الدليل الواضح على ذلك فى قـــول المؤرخ « ارنولد » .

ولا يســـعنا المجال هنـــا للاســـتطراد فى أمر الصين والمسلمين ، وإنمـــا كل ما يهمنا هو اظهار حال الامم المجاورة للعرب قبل ظهور الاسلام وأثـــر ذلك على بعث نظام تربوى سماوى جديد ودعوة آلهية الى توحيد منهـــج التعليم الدينى فى بلاد العـــرب والعالم أجمـــع الذى فاض به الكيل من الفتن والتفرقة بين الطبقـــات والانحطاط الخـــلقى والانهيـــار الاجتمـــاعى والفساد الدينى الناشىء عن تعدد الاديان فى العالم واتخاذ التماثيل والاصنام آلهة تعبد ويقدم لها القرابين ابتغاء دفع الضرر وجلب الخير والثراء والمطر .

وقد ساهمت الهند مع جاراتها من الدول الاخرى فى القرن السادس بنصيب مماثل فى التدهور الخلقى والاجتماعى والظلم السياسى والفســـاد الدينى . وجدير بالذكر أن القدر المشترك الذى أوقع هـــذه الأمم المختلفة فيما وقعت فيه من انحلال واضطراب وشقاء ، انما هو الحضارة والمدنية اللتان قامتا على اساس من القيم المـــادية وحدها دون أن يكون لها مثل روحيـــه وقيم خلقية عليا تقود هذه الحضارة فى سبيلها الصحيح .

وهكذا وقعت الجزيرة العربية بين حضارتين كبيرتين جانحتين احداهما حضارة الروم المـــادية والاخرى حضارة الفرس الروحية الخيالية ومن

حولهما حضارة الهند والصين ، وكل منهم عجز عن تشكيل الانسان الفاضل لسيطرة الحضارة المادية على عقولهم وبعدهم عن تعاليم ومبادىء الشرائع السماوية التى نزلت عليهم فى كتبهم السماوية الزابور والتوراة والانجيل وغيرها . ومن ثم حان الوقت الى ظهور نظرية تربوية سماوية فى آخر كتاب سماوى ببعثة افضل الانبياء وخاتم الرسل فكانت الدعوة الحقة دعوة « محمد » صلى الله عليه وسلم الى الاسلام ليخرج الناس من الجهل الى العلم ومن الظلمات الى النور ومن الضلالة الى الهدى والرشاد .

المجتمع العربى فى أرض الجزيرة :

أما حال الجزيرة العربية فى الجاهلية فقد كانت هادئة الى حد ما بعيده بل منعزلة عن مظاهر الاضطرابات والفتن ، اذ لم يكن لدى أهلها من الترف والمدنية الفارسية ما يجعلهم يتفننون فى خلق وسائل الانحلال والانحطاط الخلقى ووضعها فى قوالب الدين ، ولم يكن لديهم من الطغيان العسكرى والحضارى الرومانى ما يبسطون به ايديهم بالتسلط على اى رقعة من الارض حولهم ، ولم يؤت العرب من ترف الفلسفة والجدل اليونانى ما يصبحون به فريسة للاساطير والخرافات .

وكانت طبائع العرب أشبه ما تكون بالمادة الخام التى لم تنصهر بعد فى أى بوتقة حضارية فكانت تتراءى فيها الفطرة الانسانية السليمة والنزعة القوية الى الاتجاهات الحميدة كالوفاء والاباء والعفة ، كما امتاز العرب بين امم العالم وشعوبه فى العصر الجاهلى بأخلاق ومواهب انفردوا بها كالفصاحة اللغوية وقوة البيان وحب الحرية والأنفة والشجاعة والبسالة فى أيام محنتهم وقت ان غزا الفرس والروم أطراف جزيرتهم ، كما كانوا مضرب المثل فى الكرم والحماسة فى سبيل العقيدة ، والصراحة فى القول والحفاظ على المقدسات ، ذلك أن دين العرب فى الجاهلية لم يفصم العلاقات الوثيقة بين ابناء العمومة بل ظل شعارهم دائما « انصر أخاك ظالما او مظلوما » وأشباهه من الشعارات التى سارت سير الأمثال فى كل القبائل والعشائر وفاضت به كتب التاريخ والادب ، كما امتاز العرب أيضا بجودة الحفظ وقوة الذاكرة او الحافظة وقوة الارادة . الا انهم كانت تعوزهم المعرفة

والعلم الذى يكشف لهم الطريق الى تلك الحضارة الانسانية والمعرفة الالهية فالعرب كان معظمهم أميين يعيشون فى ظلام من الجهالة بسبب انعزالهم أو ظروف معيشتهم فضلوا الطريق وهذه الحالة التى وصفهم بها الله فى قوله تعالى :

« وان كنتم من قبله لمن الضالين » (١) وهذه الصفة تدل على التماس العذر لهم فى سلوكهم الجاهلى اكثر مما تدل على تسفيههم وتعييرهم ، ذلك لان الامم الاخرى من حولهم كانت تتقلب فى الظلم والفساد عن تبصر وتخطيط وفكر وتعمد اذا كانت تستهدى فى انحرافها الخلقى بمشاعل الحضارة والثقافة والمدنية والدين وخاصة انهم كانوا اصحاب كتب سماوية تهديهم الى الرشد .

---

(١) سورة البقرة آية ١٩٨ .